

## البلاغة والأسلوبية

### محاوّر المحاضرة:

#### 1- تمهيد.

#### 2- الأسلوبية.

#### 3- علم الأسلوب واتجاهاته.

#### 4- بين البلاغة والأسلوبية.

#### 1- تمهيد:

يتجاذب الفكر النقدي الحديث تياران متوازيان، هما: الأصالة والمعاصرة، وهما تياران لم تخل منهما مجالات الفكر النقدي والأدبي على المستوى الإنساني كله، ولقد قامت حولهما دراسات موسعة مستفيضة أثمرت فيضا من النظريات والاتجاهات التي أثرت الحركة النقدية والأدبية في الغرب الحديث، ولا نزال ننتظر لها هذا الثراء في فكرنا النقدي والأدبي الحديث أيضا.

علما أن بين هذين التيارين مبادرة لها أهميتها في الإقدام على الدراسات الغربية الحديثة تأخذ منها منهجها العلمي في إطار معتدل، لا ينغلق على القديم، ولا يتعصب للجديد، وإنما يقود حركة النقد الجديد بما استفاه من هذه المناهج العلمية، ويوائمه مع ما يراه خصبا ثري العطاء في التراث القديم.

والمأمل في مقومات الحداثة يدرك قيامها على تلاحم بين ظاهر العمل الأدبي وباطنه، وهذا التلاحم هو الذي أتاح للأدب أن يفتح على المجتمع، كما أتاح له أن يرتبط بعملية الاتصال في مستوياتها الثلاثة: المبدع والمتلقي والنص. إن البحث في مستويات الاتصال السابقة يقود إلى القول بأهمية البحث في كل مستوى منها وصلته بالإبداع والخلق، ومن هنا تحتم أن تأخذ نظرية الأسلوب مكانها ضمن تيارات النقد الحديث، هذه النظرية تناوش الأدب وتستخرج ما فيه من خواص، وترصد ما فيه من سمات، بحيث يتمكن من معايشة العصر وروحه، مفيدة في كل ذلك من البعد التاريخي للبحث اللغوي الذي اتصل بالنظر الأدبي في مجال النحو والبلاغة، أو في مجال النقد الخالص.

لقد استقرت اليوم نظرية الأسلوب، أو مباحث الأسلوبية كمعطى جديد للدراسة النقدية، تقدمه الممارسات العملية والتطبيقية وتعمقه أصالة البحث النظري. ومما يثير الانتباه أن هذا التيار الأسلوبي كان يشق طريقه بين الشكوك المتزايدة في جدواه، بل وفي شرعية وجوده، وبين ترحيب بمقدمه أملا في العثور على عطاء جديد في الأدب من خلال صورته الأسلوبية. غير أن هذا الترحيب كانت تخالطه كثير من مشاعر الخوف والتوجس عندما كانت الدراسة الأسلوبية تتحول إلى قواعد تعليمية، لها جفاف البحث البلاغي في مرحلة جموده، أو عندما تتحول إلى أشكال ضبابية لا تفرز قيمة فنية، أو عندما تتحول إلى عملية إحصاء مية تقدم النص الأدبي في شكل بعيد عن أدبيته، وتصله بما هو غريب عليه وبعيد عنه.

## 2- الأسلوبية:

ظهرت كلمة (الأسلوب) في التراث العربي القديم على نحو ربطت فيه بين مدلول اللفظة وطرق العرب في أداء المعنى، أو بينه وبين النوع الأدبي وطرق صياغته، كما أنها ربطت أحيانا بينه وبين شخصية المبدع ومقدرته الفنية، كما أنها ربطت أيضا بينه وبين الغرض الذي يتضمنه النص الأدبي. وقد يتساوى مفهوم الكلمة مع مفهوم النظم الذي يمثل الخواص التعبيرية في الكلام، لكن ذلك كله لم يقدم نظرية متكاملة يمكن اعتبارها بحثا أسلوبيا عربيا في المجال التنظيري أو التطبيقي.

أما كلمة (الأسلوبية) فقد ظهرت خلال القرن التاسع عشر عند الغربيين، لكنها لم تصل إلى معنى محدد إلا في أوائل القرن العشرين، وكان هذا التحديد مرتبطا بشكل وثيق بأبحاث علم اللغة، فحين ظهرت بوادر النهضة اللغوية في الغرب فيما يسمى بالفيلولوجيا، أكدت الصلة بين المباحث اللغوية والأدب، لأنها لم تنظر إلى الدراسة اللغوية باعتبارها هدفا مقصودا لذاته، بل باعتبارها انفتاحا ثقافيا وفكريا جديدا. ومن هنا كان هناك نوع من الاهتمام بدراسة النصوص القديمة وخاصة في جوانبها اللغوية، وظل الأمر كذلك إلى أن وضع "دي سوسير" أسس علم اللغة الحديث، وهي أسس يمكن تلخيصها في عدة نقاط منها:

1-العلاقة بين اللغة والحديث، أو بين عناصر الوراثة في اللغة (Langue) والاستخدام الخاص الذي يزاوله الناس في الحديث (Parole).

2-تحليل الرموز اللغوية، وذلك باعتبار أن المسميات اللغوية ليست سوى مفاهيم ترتبط بذهن من ينطقها، أو على أساس أنها محرك يثير معنى ما.

3-دراسة التركيب العام للنظام اللغوي، إذ لا علاقة بين صوت الكلمة، ومفهومها الذي لا يتحدد إلا في ذهن الإنسان.

4-التفرقة بين مناهج الدراسة الوصفية ومناهجها التاريخية.

### 3-علم الأسلوب واتجاهاته:

أخذت كلمة (الأسلوبية) مفهومين مختلفين هما:

1-دراسة الصلة بين الشكل والفكرة، وخاصة في ميدان الخطابة عند القدماء.

2-الطريقة الفردية في الأسلوب، أو دراسة النقد الأسلوبي، وهي تتمثل في بحث الصلات التي تربط بين التعبيرات الفردية أو الجماعية.

وتجدر الإشارة إلى أن تناول الأسلوبية إنما ينصب على اللغة الأدبية، لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء، بما فيه من وعي واختيار، وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المؤلف، بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتلقائية التي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز. ولهذا يمكن القول أن علم اللغة يدرس ما يقال، في حين أن الأسلوبية هي التي تدرس كيفية ما يقال، مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحد.

وتركز الأسلوبية على كشف العلاقة بين الدال والمدلول، وتقود بالضرورة إلى عمليات التوصيل بعناصرها الثلاثية (المرسل، والمرسل إليه، والرسالة)، كما تقود أيضا إلى محاولة تبيين حقيقة الرسالة في النص الأدبي دون الاقتراب من أي خلفيات مسبقة تتصل بأمر غير أدبية، لأن الأسلوبية بهذا الشكل الذي صارت إليه ليست على استعداد لتقبل هذه الأمور. ويقدم العمل الأدبي للدراسة الأسلوبية المواد التي تحتاجها لتحقيق أهدافها، وهي مواد غاية في السهولة، لأن سبيل الحصول عليها مرتبط بنص محدد، ومرتبطة بمبدع له إرادة واعية، وطريقة أدائه هي التي تخلق له القوانين العامة التي تتحكم في اختيار عبارته وتنظيمها، وتعطيها طبيعتها الاستمرارية.

وعلى العموم يمكن حصر اتجاهات علم الأسلوب في ثلاثة مستويات هي:

1-المستوى الأول: يتشابه فيه علم الأسلوب مع اللغة أو ما أطلق عليه علم الأسلوب العام الذي لا يرتبط بلغة معينة، وإنما يتناول المنطلقات الأساسية التي لا ترتبط بأي ناحية تطبيقية.

2-المستوى الثاني: يظهر فيه الاهتمام بالناحية التطبيقية من خلال الابتعاد عن التعميمات المطلقة إلى تحديد المجال بلغة معينة، للخروج منها بالتنوعات الأسلوبية التي لا تعتمد على الناحية الفردية، بل تستمد وجودها من القيم التعبيرية في اللغة ونظامها العام، ومستويات الأداء في هذه اللغة مع ربطه بالمجال الذي ارتبط به الأداء، مثل دراسة لغة الخطاب، واللغة الإعلامية، واللغة القضائية، وغير ذلك من المجالات الاجتماعية.

3-المستوى الثالث: وفيه تضيق حلقة البحث الأسلوبي لتتبع إنتاج فرد واحد، بإخضاع لغته لأنواع من التحليلات التي تقدم معايير موضوعية، تعين الباحث في مجال التفسير. وهذا هو الاتجاه الغالب والسائد في علم الأسلوب.

#### **4-بين البلاغة والأسلوبية:**

قامت البلاغة العربية القديمة على جدلية ثنائية بين الشكل والمضمون، وهذه الثنائية فرعت مباحثها إلى اتجاهات؛ منها ما يهتم بالشكل أو البناء اللفظي وما يتصل به من تناول للفظة المفردة، ومنها ما يتصل به من بناء يتناول الجملة، أو ما هو في حكم الجملة. ومنها ما يهتم بصلة اللفظ بمعناه، وما يترتب عن ذلك من خروج هذا المعنى عن حدوده التي وضعت له، أو بمعنى آخر انحراف المعنى عن اللفظ، ثم يمتد هذا الاهتمام ليتناول معنى الجملة وصلتها بما قبلها وبما بعدها كما في مباحث الفصل والوصل.

وقد قامت هذه المباحث على أساس وصفي من خلال دراسة النماذج الأدبية الراقية للشعراء والناثرين، وقد سبقها النموذج القرآني بوصفه المثل الأعلى في الأداء الفني الذي يبلغ مرتبة الإعجاز، وكان رصد أوجه الحسن في الأداء الفني بكل ألوانه المعروفة هو بداية الدرس البلاغي والنقدي القديم. مع العلم أن هذا المنهج الوصفي لم يستمر طويلاً إذ انقلب إلى معيارية خالصة.

وقد أتاح هذا القصور للأسلوبية الحديثة أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة، لأنها وقفت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مسمياتها وتصنيفها. وتجمدت عند هذه الخطوة، ولم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل، كما لم يتسن لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل، وعُدّ هذا

بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة، وإقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التي أرهقتها مصطلحات البلاغيين بتفريعات كادت تغطي على كل قيمها الجمالية.

وقد اتجه البلاغيون إلى الاختيار من النماذج المطروحة أمامهم، ليؤيدوا بها ما استنبطوه من قواعد، ولم يكن لهم في هذا المجال استقراء دقيق، بل ربما وصل بهم الأمر إلى افتراض وجود نموذج لقاعدتهم في نص من النصوص، إذا أعوزهم الوجود الحقيقي له، أو ربما حاولوا صناعة نص يحمل الخاصية التي يريدون الاستشهاد بها على قاعدتهم. وهذا كله جعلهم يحملون فنون القول ما لا تحتمل من صورهم البلاغية، فأصبحت البلاغة تصدر عن مجموعة من القواعد التي تساند الأحكام البلاغية والنقدية التي كانت تعتمد كثيرا على العرف والتقاليد السائدة في النماذج السابقة، أو التي تخيل البلاغيون وجودها فيها.

غير أن قراءة متأنية في الدراسات البلاغية التي استمدت عطاءها من النحو الإبداعي، تُظهر جانبا خفيا في علاقة البلاغة بالأسلوبية، فكتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني يعدّ بداية نحو نظرية لغوية في فهم النص الأدبي، ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب في ذاته من خلال مفهوم النظم، وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي. وقد مثلت البلاغة في كثير من جوانبها العلاقة بين الأسلوب والمعنى، وصلة هذا الأسلوب بما تتعرض له الجملة وهو الذي يدخل تحت ما يسمى علم المعاني الذي يختص بتتبع سمات تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، احترازا عن الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال. والبلاغيون عندما يتناولون الكلام في التراكيب إنما يقصدون ما نتج منها عن وعي وإدراك، وذلك لا يكون إلا ممن أوتي مقدرة بلاغية معينة، لأن ما ينتج من صياغة في المستوى الإخباري إنما يتم في صورة عفوية بحيث يأتي مع ما يتفق، وخاصية التركيب منظور إليها من جانبين اثنين: المبدع باعتباره مصدر هذه الخواص التركيبية، ثم المتلقي من خلال قيامه بعملية الفهم والمعرفة، وبين هذه الطرفين تأتي الرسالة بشقيها الإبداعي والإخباري، وهذا ما أدركه "السكاكي"، فالكلام على هذا يدور بين احتمالات ثلاثة هي: خلو الذهن عن الحكم، أو التردد في قبوله، أو إنكاره كلية، والصياغة تأخذ خواصها التركيبية في كل حالة باستخدام الأدوات اللغوية التي تقدم الكلام خاليا من التوكيد، أو مؤكدا مراعاة لمقتضى الحال. ويختص المستوى الإبداعي بتجاوزه مجرد الإخبار إلى أهداف جمالية، تتأني بالتغيير في الصياغة والتركيب بترك المسند إليه أو ذكره، وبتعريفه أو تنكيهه،

وبتقييده أو إطلاقه، وبتقديمه أو تأخيره، ففي مثل هذه الصياغة تأتي الإفادة اللطيفة. وهذا عين البحث الأسلوبي وجزئيات درس الأسلوبية.